حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

محمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٢ —

لمحمود المنجوري

يعتقد تاجور ان النزاع بين الروح والجسد ليس من المسائل الفلسفية النظرية التي لا تؤدي عملاً حاسماً في توجيه الحياة البشرية ؛ وهو مؤمن بان هذا النزاع قد يؤدي الى دمار العالم وانهيار المدنية اذا ما تغلب الحيوان الذي في الانسان على مُثُل الروح العلياء عندئذٍ ينقلب العالم جحيماً آليًّا لا إله فيه ولا روح ، وعندئذٍ يسود البطش وتقوم مدنية القيود وينمحي القلب والوجدان من هذا الانسان المادي الجبار اذ يعود بمدنيته الى نوع جديد من الرق ويصبح الفرد وفي أُسس ثقافته الشغفُ بالاستعباد فيستعبد الغير — وويل للعالم اذا ساده اله بشري !

لقد ارتاع تاجور عندما زار اوربا عقب حرب سنة ١٩١٤ اذ وجدها ترقص فوق البركان ، تتنازعها المبادىء الجديدة الفتاكة ، وعندما وجد اعصاب الشباب تلتوي في ايدي الزعماء وقادة التخريب والدم ، فبكى على مدنية هي خير تراث بشري ، وأشفق على ما فيها من علوم هي ذخر لا يقدر بثمن . وأخذ يحدث الامم والشعوب ويطوف بالقادة والملوك ليوجهوا المدنية الغربية وجهة الخير والانسانية وليتزعوا بها نزعة الروح والحق والجمال ، وطلب اليهم ان يقتلوا هذا الحيوان الثائر في الانسان وان يتخذوا من وداعة الشرق وفلسفته قيم مدنية روحية خالدة . ولكن فيلسوف الشرق ترك اوربا وقد أنذرها بحرب طاحنة ستثور ما دعا داعي الدمار في سبيل العصبية والجنس والدم . ثم ذهب الى اميركا لعله يجد في الاميركيين آذاناً صاغية ، فأخذ يحدثهم ويحاضرهم ويستثير شغفهم وتطلعهم الى المدنية وما فيها من جمال روحي . ويطلب اليهم ان يغلبوا الروح في مدنيتهم وان يحدوا من كبريائهم عند ما يذكرون انهم حرروا العبيد من أهل بلادهم الاصليين (١)

« حينما تكون أنفسنا عبيداً لشهواتنا الذاتية نشعر براحة في حيازة العبيد ؛ لأن ذوق القوة في أنفسنا ينعكس صورة من عبوديتنا على غيرنا فنرتاح اليه كما يرتاح [illegible] الى الجوع لدى اعتقاده »

ثم يخاطب الاميركيين بقوله :

(١) المحاضرة الثانية من محاضرات تاجور في اميركا

« حين حررت أميركا عبيدها ، كانت في الواقع تحرر نفسها في الاخرى تحريراً روحياً وماديا … ولا وهبت حرية الارادة لقوم تحرر عن الحياة ، ولان تحقيق حرية الارادة للعبد هو … ضرب من التوافق التدمير والانسجام والحب … تكون قد خلقت أصدقاء جدداً ثقة بل … والدمج في حرية كاملة وسلام تام بعيد عن فرض شخصيته عليه وعن الأثرة بخوف وقيود الواجبات — ان الشعور بهذا هو الحب الانساني في أسمى معانيه »

وهذه هي المعاني السامية التي أعلنها ايضاً تاجور للهنود يوم صام غاندي في سبيل تحرير المنبوذين من أهل الهند لرد اعتبارهم والاعتراف بشخصيتهم كأفراد لهم حقوق الانسان كاملة[1] .

على ان الرق الذي رفعه الانسان عن كاهل الانسانية قد استقر بكيانه في صميم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، لان المدنية الغربية تأباه باسمه ولكنها تقبله بأثره ومعانيه ، ولا ترى فيه تناقضاً مع مبادئها التي نهضت على الأثرة والانانية وتنازع البقاء

« لقد مرت على العالم عواصف طغيان شديدة من الكذب والتغرير وأثرها خلفت في جسم الانسانية جروحاً دامية لا تبرأ ، ومن الصلف والكبر والغرور الذي اتخذ الاديان مطية اجتلاب لاذلال الناس ، ومن بطش المادة التي تعمل لاذلال الروح العليا التي في الانسان . لقد مرت على العالم هذه الآثام الطاغية وتسربت في جنباته أجيالاً مفعمة بالخطيئة والآلام . ولقد خرج الانسان من هذه المآسي مجروحاً مبتوراً وقد شوهته أيدي الظلم والطغيان وتركته عاجزاً عن العمل . فكم من جموع من بني البشر قد شوههم الطغيان وتركهم في عجز وعوز ، هم يزحفون كالحشرات على سطح هذه الدنيا عاجزين عن العمل يقاسون متاعب العيش ومذلة الرق في أرض الحرية والمدنية والسلام ، وكم زرعت في حقول هذا العالم الشاسعة بذور الملذات الفردية التي سمدت بدماء العبيد وسقيت من عرق جباههم الذليلة ، وكم أقيمت في هذه الدنيا ثروات نهضت على بطون الجياع وأكتاف الجماعات المشردة المحرومة . ولكم اتخذ الطغيان جماعات من البشر تكأة للوصول الى ذروة القوة والمادة ثم تركها جائعة محرومة . لقد مرت هذه المذلات على الانسانية ويلات متوالية — وإني لأقف الآن امامكم ايها الاصدقاء الامريكيون وأسألكم هل استطاعت هذه الروح الطاغية ان تقيم لها ملكاً ثابت الاركان ؟ ألا ترون ان هذه الروح قد ردت على أعقابها ، وهزمت كما بدأت ريحها وذهبت ؟ انها لدليلة في كبريائها ، وستسحق رأس الافعى الشامخة كي تسير العالم في طريق الوحدة الروحية وتقوده الى سبيل الحياة الكريمة ، وستطهر هذه الحقول الرطبة بدماء الضحايا من البشر وستزدهر بنبت جديد … المدنية … ويغمر قلب الانسانية محبة ووحدة وجمالاً . ألا لعنة الله عليك أيتها الروح لا تجيء مريرة … العرف والاباء عن طريق الخير والسلام ! حسبك من هدم وقساوة ان يخرج جبينك … الانسانية الخالدة ؟ »

« تبوأوا روح الله في أنفسكم ايها … ، واعلموا ان الحيوان الذي في اجسادكم انما هو قوة غاشمة روافد الغلو ، وان الروح … أسمى التي لا … تقتلها الحياة ولا تحتمي القيود ، ولا حدود للترف ولا بطش الطغيان — لانها لا تؤمن بها ولا تجد قوتها في المدلات للقوة والاستئثار ولا في … وجد ولا في خداع الحرب ، وانما قوتها كامنة في ذاتها وفي اتصالها بعالم الكمال الاسمى

« ان الروح التي فيه تتحرر من قيود اليوم ستتوقد وتغني ، وأما الغد ، الغد الجميل فيتوق الى تحقيقه لخلود الباقي . ان الروح التي فينا عميقة الجذور … هي كالعشق … في دموعه مضفورة ، كانت عليه غريزة تنمو في موضع العطف وتنمو … من قلبه ، فتبوأ … صفحة مشرقة ، وان الأمل الذي نجده وحب التضحية … الآلام … ، لنتفق عليه ونسرع الى غدنا ونبعث اليه العزاء والسوق وان نتشبث بالفضيلة ونسود أمامنا الليل »

---

[1] راجع المقتطف : العدد الثالثة ص ٣٨١ — للسحرتي

« ان تاريخ الدنيا هو تاريخ الزلازل والبراكين وثورة الفيضانات والحروب ، ويمكن على الرغم من ذلك نمو تاريخ الحق الناضر وثناء الجاري ونظير النسيم . سينتقل العالم من طور انحطاط الكهوف والزلازل الى طور الحقول والبحار الدائم ، وسيتخطى العالم الروحي طور الطفولة المليء بالخطوب الثائرة ، وينهض قويا شابا مبتهجا بجماله فخوراً بقوته وحريته »

« ان الالم دليل الحياة وبحث التطلع الى الحرية ، انه لا كبر أمل للانسانية ان يكون الالم عنصراً يقظاً في حياتنا ، ان الالم هو لغة عدم الكمال ، ولكنه الامل في الكمال ، ان لغة الالم لتحمل معنى اقترابنا من الكمال ، كصراخ الطفل ليس له معنى اذا لم يكن الطفل اعنى بأمه — واعاننا بالكمال هو الذي يوقظ شعورنا بالالم — وهو الذي يجعله كرماً نجود بنفوسنا لتحقيق المثل العليا في الحياة . ولن نصل الى المثل العليا الا اذا بذلنا أرواحنا في سبيل الحرية فلا تتعارض مع وحي الضمير ولا تخضع للطغيان ، بل ندع ذاتنا فانية في الحق اللانهائي الذي خلق العالم ودبره — يجب ان نؤمن بان شخصيتنا الفردية شخصية ناقصة وان كمالها لا يكون الا بالاندماج في شخصية الجماعة — يجب ان تفنى الانانية في الفرد عندما يفكر في خدمة الانسانية وهذا هو بداءة العمل للوحدة الروحية التي يجب ان تكون ميسم المدنية الناهضة للانسان »

« لقد ولد الناس وفي طبيعتهم الشهوة والانانية ، ولكن قد ثبت على الرغم من ذلك انهم يحيون حياة متصلة بالروح ، وانهم يستطيعون ان يحرروا انفسهم عندما يتحررون من قيود الشهوة ومن ضيق المذاهب الوطنية والجنسية ومن الافكار الثائرة المخربة للاعصاب ، وعندما يصيرون واحداً في الله ، من طريق الحياة والفكر والعقيدة الحرة ومحاربة الشر والطغيان — هذا هو الطريق الحق للانسان ، فكم تلاشت أمم كان لها جانب وكانت عظيمة كالطود ، وقد نبتت شرائع كالدخان وكانت قوية مهيبة — ولعبت أمم أدواراً على مسرح الحياة ثم غابت الى غير رجعة — لقد تلاشت هذه جميعاً لانها عاشت أنانية لنفسها تعبد « أنا » وتنكر الوحدة الروحية مستعينة بالقوة والمادة وحدها كأسس صالحة للبقاء »

لقد سمع الاميركيون هذا النداء فعلموا ان تاجور ينذرهم فيه بان المدنية الحديثة نهضت على انكار الروح واتخذت لنفسها تكأة من الآلة والمادة والانانية ، وانها ستكون كالنار او كالبركان ثائرة لا تبقي ولا تذر . انها ستعلن جحودها بالقطاعية متكبرة عنيدة

لقد سمع الاميركيون هذا نداء من الشرق الكريم ، تردده نغمات فيلسوفه العظيم منذ عشرين سنة ، ولكن الاميركيين لم يستفيقوا الى هذا النداء الآ عندما ثارت المدنية الطاغية بحرب عالمية فوقف الرئيس روزفلت في الكونجرس في ٦ يناير سنة ١٩٤٢ — يعلن رسالته

« ان العالم بأسره أضيق من ان يؤوي في رحبه مكاناً يسع طاغية ما ، شريكاً لله فيه »

وهكذا اراد الرئيس روزفلت ان يجعل الاميركيين يؤمنون بدعوة تاجور ، بل انه يعلن هذه الدعوة اليوم باسم الشعب الاميركي الذي خرج من العزلة التي كانت أساساً في نهجه وسياسته وأصبح اليوم يشعر بان عزلة امة كاملة عن العالم في جميع مظاهره من حرب او سلام انما هي ضرب من ضروب الوهم والضلال

وما كان تاجور يريد بالاميركيين يوم حاضرهم الآ ان يبعث فيهم اليقظة في خطئهم التقليدي الذي كروه بعزلتهم عن مشاركة العالم ، وكم كان يود ان يمتزج قلب الاميركيين بقلب العالم من طريق الروح والحب والرحمة والسلام ، لقد قال لهم ان المدنية التي تخلو من جمال الروح والتي لا تنهض على أسس من رعاية الوجدان الانساني ، هذه المدنية انما هي عمل في لا يمكن ان يتسم بالانسانية ولا بالوطنية ولا بالقومية ، وطالب القادة الذين زجوا بالعالم في حرب سنة

١٩١٤ ألاّ يغتروا بالجماهير، وألاّ يدفعوا بالشباب الى حماسة المبادئ الطائشة والاندفاع للوطنيات الحربية والأنانية المهلكة. ودعاهم الى السمو بالتعاليم التي خلقتها الحرب الماضية والسمو بالوطنية والقومية الى التعاون الانساني تعزيزاً لمجد البشرية، فلكل فرد ولكن كان ان يحيا حرًّا ميسراً في عقائده وتفكيره وعلاقاته في الأسرة والجماعة. لقد دعا تاجور الاميركيين الى هذا، كما دعا العالم الاوربي فلم يجد منه القلب الذكي المخلص، وأنذرهم كما انذر اوربا من قبل بأن العالم مقبل على حرب الجنس والعصبية واللون وان العالم يسير في مدنية متنافرة القيم والاوضاع، فبينما قد أزالت مخترعات العلم الحديث المسافة والزمن ومحت أثر الحدود الجغرافية وربطت اجزاء الدنيا بأواصر التخاطب اللاسلكي والطيران تنهض المدنية على هذه الاوضاع؛ نراها تتفاعل كالزلزال او كالبركان بمبادئ التحريب التي تنطوي على إثارة الوطنيات والاجناس والالوان، ولهذا دعا تاجور الغرب الاوربيين والاميركيين وارسل اليهم النذير تلو النذير وحذرهم من حرب العناصر والاجناس وبشرهم بدعوة الشرق الكريم التي ألهمها عقائده وكتبه السماوية في المحبة والاخاء والمساواة وتغليب الوحدة الروحية في نظمه وتفكيره وثقافته

وتاجور الذي يدعو الى مدنية روحية جامعة لا يريد بالانسان ان يحدد ضميره بحدود مطامعه ورغباته الفردية، بل يريد ان يطلق الانسان ضميره مع الحياة ليندمج في الضمير العالمي حيث يتصل بحقائق اللانهائية ويتعرف مطالب النفس والروح. ويرى تاجور ان الوسيلة الى فهم هذا انما تكون من طريق الفن والادب والطبيعة، وهو ينظر اليها كشيء واحد يجب ألاّ يفرّق الفرد بينها

«وأعمق الفن محاولة تجهد نفسنا الوصول الى حقيقته التي قد لا تعبير عنها، هي حقيقة واثقة وحيدة المتجددة على الرغم من تقادم الزمن عليها (١)»

فالفن في نظر تاجور حقيقة متصلة بادراك معنى الحياة الروحية، ولا يكون فنّاً الا ما سما بنا عن ادانية الحياة ومدتها، وارتفع بنا عن الخطيئة والنقص، وباعدنا عما تواضعنا عليه من قيود ومصطلحات. والفن في نظره هو ما يكون مبعثاً للبهجة والمسرة في النفس، ولن يكون الفرد فناناً الا اذا استطاع ان يطهر نفسه من مطامع الدنيا، ويشرف بروحه على الحياة في وضعها المثالي الكريم

وأما الادب فيكاد تاجور لا يفرق بينه وبين الفن في شيء فهو في نظره

«جهد مقرب من معنى معرفة الحقائق [illegible] من صرخ البشر الحية وتعبئة»

---

(١) آراء تاجور الواردة في معنى الفنون والآداب مقتبسة من الفصل الثالث من كتاب سادهانا «The Realisation of Beauty»

وهو يرى الانسان المجرد من الفن والادب وحب الطبيعة ، غير صالح للحياة ، وهو يقول عن هذا الانسان

« اذا ماخلا الانسان من الفن والادب وحب الطبيعة ، كان مشكلة نفسية ، مفعمة بالاثرة والانانية ، وظاهرة متعسفة انفعالا جمح بها الهوى عن طريق الحق الواضح ، وتنكب الانسان اذن طريقاً كله وهم وخداع وضياء كاذبة لا خير فيها »

فتاجور عندما يبشر بالفن والادب ، انما يبشّر بحقيقة متصلة بالطبيعة والحياة على انهما مظهر من مظاهر السمو الانساني ، يرتفع بالفرد الى المستوى الروحي حيث يستقبل وحيهُ وهو مطمئن عارف بالحقائق ؛ وبما يريد التعبير عنهُ ، فيضفي عليه من شعوره ما يخرجهُ فنّاً او أدباً ذا شخصية عالمية . والأديب والفنان هما وسيلة للتعبير عن الحياة ، وان عملهما ليبدأ عند ما يتهيأ لهما الخروج عن نطاق تسخيرهما للفناء فيما هو أعم وأشمل وأكثر وضوحاً وأجلّ طموحاً ؛ هنا يكون العمل الرائع ، الذي تنشده الانسانية وتأباه الاثرة والانانية ؛ وهنا يكون الفن الذي يقبلهُ الانسان المثالي الكريم ، وهنا يكون الشعور بالمسرة وجمال الحياة . والأديب كالفنان ، لا يخلق ، والا كان عمله آليّاً صناعيّاً ، ولكنهما يعملان بوحي تلقائي ، ولا يبغيان غير المتعة والبهج والمسرة بما استطاعا ان يعبّرا عنهُ عن طريق ايصال الروح بحقائق الحياة الخارجة عنها « من طريق البساطة والعظمة » كما يقول تاجور

ولعلّ هذا الايصال هو جهد مبذول يفسر وجوب ادراك الأديب والفنان للحرية الصحيحة عندما ترفض النفس القيود التي حولها ، وتكون مطلقة ، ملهمة متزّدة ، داعية الى الوحدة والمحبة والسلام ، واثارة الجمال والحرية على حياة مطبقة محدودة بأوضاع وقيود فرضها الانسان على الحياة في نطاق رغباته وشخصيته وأنانيته الفردية

هذه هي دعوة تاجور في الادب والفن ، وانك تستطيع ان تجد هذه الآراء مبهمة واضحة في كتابه « سعد هانا » فهو يضم محاضرات غالية في هذه النواحي ؛ ولقد حدثنا تاجور في فصل رائع منها عن الجمال وتحقيقه [1] في حديث هو مثال عال لأدب النفس ، هذا الادب الذي تدعو اليه مدرسة تاجور ، كقاعدة خيرة فعالة للثقافة الروحية ، عالج فيه الجمال كحقيقة مطلقة كائنة في الوجود ، ليس لها تقدير أو قياس خاص ، وان اختلفت البيئات والثقافات والوراثات في تقدير مظاهره ، وهو يعبر عن الجمال بانهُ الفرح بالوجود ، وان كل ما يدخل على نفوسنا البهج أحببناه وقربناه من ذواتنا ، ولهذا بحثت النفس البشرية عن الجمال لتأوي اليه في كنف الحب او الرضى او العبادة او الادب او الفلسفة او في كنف هذه كلها

(١) The Realisation of Beauty

مختلفة . ومظاهر الجمال مختلفة ، ولكنها تدل على حقيقة واحدة رائعة ، تبعث في النفس احساساً واحداً ، هو الاحساس بالغبطة والسرور — فالاحساس الذي تبعثه الموسيقى هو نفس الاحساس الذي تبعثه صورة جميلة لها ذات المعنى الموسيقي ، وهو نفس الاحساس الذي يبعثه ترتيب بيت من الشعر يدل على ذات المعاني الواحدة ، فالجمال وان اختلفت مظاهره يقودنا الى احساس بالغبطة والأمن والحب والشعور بالحرية المطلقة

وحاجة الانسان الى الحياة هي التي توجب عليه ان ينمي حاسة الجمال ، وان الانسان الاول كوّن ارادته واختياره وذوقه منذ ما بدأ يلبي حاسة الجمال ، باختياره الحسن الجميل الذي يشعره بالبهج والحرية الروحية ، وعندما أخذ يبعد عن نفسه كل ما يتنافر معها من قبح ، ولهذا كانت الحياة نفسها تعمل للابقاء على الجمال دائماً ، لان طبيعة الحياة تميل الى ان تكون بهجة محبوبة حتى تؤثرها الكائنات عزيزة غالية

والفنون والطبيعة والعقائد والمعارف والمعنويات السامية هي من مظاهر الجمال ما دامت قادرة على ان تمدنا بالمسرة والفرح ، وليس من حق الانسان ان يحدد مظاهر الجمال

« لان حياتنا تدفع نفسها الى كشف المجهول دائماً ، وفي كشف المجهول أي في المعرفة والاتصال بالاشياء تحقيق للجمال وادراك للشعور بالفرح والمسرة — فالجمال موجود في المعلوم منه والمجهول عنا ، وليس من حد فاصل بين نفوسنا وبين الجمال غير التحقيق والمعرفة »

وعندما يدرس تاجور الجمال كحقيقة مطلقة ، يقسم — كشأنه في بحوثه الفلسفية — الكائنات الى شيء ناقص ومحدود وتام وفوق التام ، فهو يقول : —

« اما ان تكون الكائنات التي لا نحس فيها البهج والسرور حملاً على عقولنا ، يجب ان نتخلص منه سريعاً يكفينا هذا الخلاص من شر ، واما ان تكون مفيدة ونافعة لنا ، فهي في هذه الحال تكون ذات صلة عابرة بنا ، ولكنها محببة الينا ما دامت تنفعنا ، فاذا قضينا منها لباناتنا ، او اذا أصبحت غير نافعة ، صارت حملاً ثقيلاً علينا ، واما ان تكون هذه الكائنات جواهر عزيزة تتفرد ، ثم تهتز حولها مداركنا لتحفظ او تسعدنا ، واما ان تكون متعة يدخل السرور على نفوسنا »

فالشيء الناقص في نظر تاجور هو الذي لا يمدّ الانسان بنفع دائم مستمر والذي يصبح حملاً منبوذاً بعد استنفاد منفعته . وتاجور يُدخل في هذه الاشياء الماديات التي يحبها الانسان لنفع موقوت — وأما ما يجلب البهج الى النفس ويدخل عليها الأمن والسمو فهو المتعة الحق الخالدة التي تبقى محدودة الاثر بدوامها وتمامها

وسبيل المعرفة الى هذه الكائنات هو يقظة الحواس والضمير في الشخص ، ومتى تبلدت الشخصية بدت الدنيا شيئاً لا قيمة له وفي هذا يقول تاجور

« ... الامور في هذه الدنيا ... ولكننا لا ... والا شعرنا ... التي أعطيت لنا ... فحواسنا وقوانا ... الى الادب بأسمى ... ما لك من حق في ميراث البشرية »

ولكن ماهي وظيفة الحواس؟ لقد أجاب تاجور عن ذلك ، وخصص لجمال حاسة مدركة له ، تفرق بين ماهو ناقص وما هو تام . فيتساءل

« ماهي وظيفة حاسة الجمال في جمع وجدانات عن ما يحيط بنا من أمور ؟ هل لحاسة الجمال نفوذ في تعديل خلق وتحليله الى أضواء قوية ، والى ظلال قاتمة ؛ ومن تعرض عليه لحاسة هذا الحق أمامه في مظهر مضطرب بين الجمال والقبح ؟ »

يتساءل تاجور بهذا ثم يجيب :

« لو كان الامر كذلك ، لكان علينا ان نسلم بأن حاسة الجمال انما تخلق في عالمنا خصومة ، وتقيم لنا سداً من التشتت في سبيل الحقيقة التي تربط كل فرد وكل كائن من هذا العالم بمجموعه ووحدته ، لكن لن يكون هذا قائماً الا متى كان ادراكنا مبتوراً لا يعبر الفاصل بين المعلوم منه والمجهول عنه ، وبين الجليل والمفتقر الى الجلال »

وعناصر الادب عند تاجور هي عناصر انسانية وان أثرت البيئة فيها — فتاجور صورة واضحة من المدنية الشرقية والعقائد الهندية ولكنه ما كان هندياً أو قومياً في نظره الى الحياة والأدب والفنون والثقافة والمدنية . بل هو انسان مطلق في تفكيره ، يبحث عن الروح وعن المثل العليا وعن الوحدة الروحية الجامعة ، ملتمساً الخير والجمال باحثاً عن الله في كل شيء ، هو صورة من الكبرياء المتواضع، وبراءة طاهرة سامية كبراءة الاطفال والانبياء، ونفس قوية عالمة بحقائق الحياة ، بصيرة بنزعات النفس ورغباتها ، عاملة على ترويضها في رفق حيناً وفي قسوة أحياناً . ومباحثه في الحياة والأدب والفنون تدعوه الى ان يتخذ لأدائها أسلوباً خاصاً ليس للشعوبية ولا للقومية الاثر الغالب فيه — فهو يستنفض ما وراء الحس من الوعي الداخلي ويبرز المضمر من صور النفس في آثار يوحي المعنى بتقاسيمها ويلوّنها بالمعاني والألوان والصور والرموز التي يريدها في اسلوبه تاركاً في تلك ظلالاً صامتة مترعة بالحياة والمعاني — هو يعالج مباحثه من طريق القلب والذهن — لأنه يحس العالم منطوياً في نفسه فهو يعتمد في ادائه وأسلوبه على الصور التي في وعيه على تخيّل خصب وشعور دقيق في ومز منتزع من التفكير والخيال - فأسلوب تاجور أسلوب رمزي عالي في أدائه وتصويره ومعانيه — وهو كما يستطيع ان يحدد الصور ويقربها من الادراك على أنها حقائق متصل بعضها ببعض ، يستطيع ايضاً ان يضفي على أجزاء كل صورة لوناً وضوءاً جميلاً من شعوره الانساني فيجمع الاجزاء في أطرافها خالقاً منها صورة واحدة لفكرته في خطوط رمزية تبعث من تلفافها في الوعي صور المعاني التي يريدها قوية واضحة — هذا هو أسلوب تاجور في الشعر والتصوف والأدب والفن وفي ادائه الافكار الاجتماعية التي يحب ان يتحدث عنها دائماً ، بل هذا هو اسلوبه في القصة والحديث والمسرح والحياة

ويعتقد تاجور ان مجال التفكير يجب ان يكون حرّاً غير محدود بأوضاع العلوم ، بل يرى أن العلوم هي قيود للتفكير تحدده وتحصره في نطاق ضيق

« ان الانسان لم يقبل ، على الرغم مما تركه بعض الفلاسفة من تعاليم ، أن يجعل لعلمه حداً محدوداً ، يستقيد بمنطقة علومه ومعارفه ، فهو يبسط كل يوم قوة تفكيره على مناطق جديدة ، ويخترق مجاهل كانت بالامس قفراً غير مرتاد ، ومجهولاً غير مكشوف . . . وحاسة الجمال طلقة ، دائبة وراء الكشف والفتح وارتياد المجهول . ومعلوماتنا تتجدد وتنمو ، كلما اتسع نطاق التعلم وراء الحقيقة ، والحقيقة في كل مكان ، ولهذا كان كل أمر في الحياة موضع تفكير وتأمل ومعرفة . وكذلك كان الجمال كائناً في كل زمان ومكان يلازم الحقيقة ولا يفارقها — وإذن فكل شيء ما دام متصلاً بالحقيقة جدير قادر على أن يكون متعة لنا بالمسرة والفرح »

والحد الفاصل بين الحق والباطل ، في نظر تاجور ، هو العلم والمعرفة والتمييز ، وكلما استطعنا أن نفرق بين الخير والشر ، ونضع الفواصل بينهما ، أدركنا أسراراً من الحياة ، وكشفنا جمالها وتذوقنا معانيها السامية :

« ان مراحل الامور في بداءة ادراكنا لاسرار الحياة تميلنا على التمييز بين الحق والباطل »

ويعبر تاجور عن الشكوك التي تحوم حول الحقيقة في بداءة التفكير بقوله :

« ويخيم إدراكنا البدائي لبرج الحياة ولم يكسوها من الألوان حية ، فأخذنا نزعمها على ان هذا ليس إلا ادراكاً مبتسراً ، اذ كل نسيج ابهمنا الجهل ، كنا أبعد عن التأثر بالنظم الذي تنسجه الحياة على مداركنا ، وتحول ما في الكائنات من شذوذ متنافر مع احاسيسنا الى نغم متوافق رخيم منظوم »

ويرى تاجور ضرورة مراقبة النفس وترويضها على فهم الامور ونقد الخير من بين الباطل

« وتعاني النفوس كثيراً حتى تفهم الحق في وحدته ، ولهذا كان علينا اولا ان نمارس نقد الجمال عن مجموعه من شعث ، ثم نعزله بعيداً ، لنعلم ما به من خصائص وصفات ، ثم نستطيع بعد هذه المعاناة أن ندرك الجمال ونتذوقه بل نتبينه في سهولة ملتبسة بما يحور عليه السبيل اليه ، فالنغم الصحيح المنظوم ، يصل للاذن الموسيقية المروضة سهلا منقاداً بعيداً عما يختلط فيه من نغم شاذ آخر . فالجمال التي يثير عواطفنا نجد في حاجة الى مضرب مشوق ، فاذا كانت تثيره الموسيقى ، بما يدخل عليه من جلبة وصياح وصوت مرتفع ، فالموسيقى تأبى الشدة والصخب ، وتروي لنا قوانين خفية لا ريب فيها ، وهي : ان السكون والجلال والدعة والبراءة في حبه عنصر الخلد التي سترت الكون امد حين »

ويفسر تاجور وجود الخرافات التي دخلت على العقائد تفسيراً فريداً :

« لقد حاول الانسان ، في امس مراحل تطوره ، أن يؤسس مناهج دينية ، ترسل الايمان بالمقدسات وتحميه فيه امدادها وحاول أن يجد الايمان في اوضح صفة ، ليبيح على نفسه من دعوته هذه كربه وعظمة وجمالا . وحدث أن سلكت هذه العقيدة في أيدي رجال قادرين ، اثقلت كاهل الناس ، بتكاليف ومبالغات كثيرة ، فدخلت هذه الطقوس في شريعة الخرافة تلك مقومة الديانة الحقيقية يوم هوى ادراك الناس وبعد عن الشعور بحقائق العلم ، ويوم طمست الخرافة معالم الحق والايمان . »

فتاجور يرى ان الخرافة والطقوس قد لابست الاديان باسم الجمال والحق ويرى في هذا مذلة ورقاً فرضا على حياة الفنون ولكنها ما لبثت أن تحررت منهما

« وجاء على فلسفة الفنون الجميلة حين تحررت فيه من الرق عندما سيل على الناس فهم الجمال وادراكه .

كما يقع في حياتهم يتلمسونه كما كانت توجيه مطالب الحياة وأغراضها من تآلف حق . ويرى ان الانسان اذا ما قيد الفنون بالعرف والاصطلاح اصبح في حيرة ، لانه لا يكون فناً ولكنه يكون ... تطلبه الصنعة ، وهو هذا « لا يدخل السرور على النفس »

ومن هذا لا يكون فناً ولا جمالاً . وعندما تكون للانسان القدرة على تمييز الفنون ، وعلى فصلها عن نزعات النفس ورغباتها ، وعن مطالب الحواس البشرية ، عندئذ فقط ، يكون الانسان الكامل ، كما يقول تاجور ، صاحب التقدير الصريح ، والنظر الثاقب لادراك الجمال الذي يعم الكائنات ، وعندئذ يتسع الادراك فيرى الانسان ان الاشياء التي قد لا تبدي الفرح والبهج لنفوسنا ليس حتماً ان تكون فاقدة الجمال او مفتقرة اليه في مظهرها اذ قد تستمد جمالها الباطني من الحقيقة مباشرة

وتقوم فلسفة تاجور دائماً على وجود السلب كما تعترف بوجود الايجاب . فاذا وجد الخير كان لا بد من الاعتراف بقوة الشر ، واذا وجد الجمال كان لا بدّ من ان نعترف بالقبح ، واذا وجدت الفضيلة كان لا بدّ لتمييزها من الاعتراف بقوة الرذيلة

« عندما نقول ان الجمال يعم ارجاء الحياة ، فما قصدنا بهذا الى ان نمحو كلمة القبح وانبثاقه من لغتنا ، في مختلف الامور ان نتجاهل الكذب والرياء ، فالكذب قائم عنق الوجود ، ولكنه ليس قائماً في منهج الحياة البشرية ذاتها ، بل هو كامن في تقديرنا وفي قوى ادراكنا وفهمنا كعنصر سلبي ، فهو ليس من طبيعة الاشياء ولكنه موجود في فهمنا ليدلنا على عكسه ، وكذلك الحال مع القبح فهو قائم في تفاصيل الجمال المحرف عن مواضعه ، وهو موجود في فهمنا وفي قدرتنا التي تصدر عن قصر ادراكنا الحقيقة التامة »

ويفرق تاجور بين الولاية المادية على القوى الطبيعية وبين الولاية الروحية عليها ، ويرى ان الادراك وصدق الفهم هو سبيل الى الولاية الثانية

« نحن نبسط ولايتنا على القوى الطبيعية فتصبح آثرتنا هذه الولاية العلمية وأما عندما نستبعد قوانين حياتنا من طبيعتنا الادبية فنحن نبسط ولايتنا على النفس ونصبح احراراً بهذه الولاية — وحتى قدرنا ان ندرك من قوانين طبيعية تتسق مع طبيعة الحياة مدى تآزر الارادة والمعرفة باسرارها ، وتصبح الاسرة طريقاً صريحاً لقوتنا »

ولكن تاجور يرى انه لكي يبسط الانسان ولايته الروحية على الطبيعة يجب ان تدقيق في ضميره نظم الحياة ، وان يطمئن الى ما في الخليقة من ائتلاف منظوم ، وان يصبح ادراكه لحب الخير جامعاً وعلنياً ، وان تتسم الحياة بطابع الجمال والخير والحب التام ، ويرى فوق هذا ان الانسان لكي يصل الى هذا النفوذ الروحي ، يجب ان ينال قلبه حرية تامة

« يجب ان نحرر قلوبنا وان نفتح هذا الحق الذي يصرفه الكرامة والتضحية ، ويجب بعد الوقت ان نمهد لاسرار الكائنات فندركها ونتذوق مباهج الحق ، وان نروض النفس عليه »

فتعاليم تاجور تنبض على مقومات المدنية الفاضلة المستمدة من العناصر الروحية

والثقافية ، الممزوجة منذ الأزل في خلق الشرق وفي تعاليمه وعقائده وفي كتبه وحكمته وفنونه . وهو يرى ان الفنون الجميلة هي وسيلة من وسائل التهذيب الروحي ، وقيمة من قيم المدنية الفاضلة التي ينشدها ، ويرى في الموسيقى الصورة المثالية العليا للحضارة البشرية التي يبتغيها ، هي مثال الكمال ، هي أنقى وضع للفن ، وأوضح بيان للجمال في روحه وشكله ، هي فن خالص . ويقول تاجور عنها في بحث عن فلسفة الفنون :

« اننا نشعر ، عندما نقدر معنى الموسيقى ، بأن مظهراً من مظاهر اللانهائية قد حدد في وضع من اوضاع البشر . فالموسيقى ليست إلا وضعاً محدوداً من اللانهائية ، في الصمت البليغ ، الذي تبديه الطبيعة فنون بجامع مناظرها . . . . كل ما يظهر في صفحة الطبيعة من جمال وسلام وثورة وغضب ، تستطيع الموسيقى أن ترقه وتصبره في أرقام صيحة الاصوات ، وتستطيع ان تؤديه اداء كاملا متصلا بالحقيقة ، بعيداً عن لغة الشعراء واصباغ المصورين . . . »

ولقد وصف تاجور الموسيقيّ فقال

« واما الموسيقي فأمره ليس كأمر الشاعر والمصور ، هذا يلجأ الى اللون ، وذاك يلجأ الى اللفظ ، يغلف به المعاني الخاثرة في نفسه ، بينما الموسيقي تجتمع له جميع اسباب فنه ، فيصدر التلحين عن نفسه نبرقه ، وليس اللحن بالشيء الغريب عنه ، ذلك ان نفسه ليستبينه فصرا ، ولكن للموسيقى واسلوب التلحين يتقن معا ، هما توأمان لا يفترقان ، فالقلب الموسيقي لا يعاني ما يعانيه قلب الشاعر او المصور عند اداء ما يجول فيه ، لانه يؤدي الهامه فناً دون ان يكلف نفسه مادة اللفظ او اللون . . . »

ويقول تاجور :

« ان الموسيقى تسمو جمال الفنون جميعاً ، لان مادة التعبير ليست إلا حملا ثقيلا يشوه من جمال الفكرة وسموها ، فالالفاظ في ذاتها حمل مرهق ، لان معانيها تحيد الفكر لغموضها ، ولكن الموسيقى وهي أنقى وضع للفن ، تعلو عن ذلك ، فلا ترهق التفكير ، ولا تجهد القلب ، ولكنها الابداع المطلق والفن الثاقب الخالص »

ويرى تاجور ان الموسيقى كأي فن آخر لا تزال تصبو الى الكمال ، فهو يقول :

« ان في كل جهد يؤدي في الموسيقى كمالاً ملحوظاً ، وهو إلهام لاعجاز ما كان منقوصا ، وليس من حق قد تم كماله ، ولكن الاغاني تجد تحكى الى غرضنا في وحدتها مناهج اللانهائية ، تجسيما وحدة تتم الكمال المطلق اللانهائي ، هي غاية ما تصبو اليه حضارة الروح والقلب »

هذه هي تعاليم تاجور تدعو الى الوحدة العالمية والى اشاعة حضارة ومدنية فاضلة ، تنشد الأمن في جميع مقوماتها ، في ثقافتها وأدبها وتعاليمها وفنونها ، تلك هي المدنية التي لا تموت ولا تفنى ، والتي يراها تاجور حية باقية في قلب الانسان .

« لقد هجعت الى فراشي لانام واغمضت العين ، ولكن الفكر يساورني ألا تهجع ! . . فاصبحت غير تواق الى نوم . . سفنى الحياة دائبة في حركتها ، متخذة من جسدي الهاجع ميداناً لجولاتها ، ولا يزال القلب ينبض ، ولا يزال الدم يتدفق في العروق ، ولا تزال ملايين الذرات تهتز في خلايا جسدي وترقص على نغم هذا الوتر الحساس الذي يرتجف من لمس الآله (١)

أنا الشرق مصدر الحضارة ، وستقتبس مناهج المدنية من الاجيال »

(١) الفصل السابع من سدهنا : لتاجور